((حُب النبي صلى الله عليه وسلم وأثره في الأدب الإسلامي الهندي))

Tracing The Love For The Prophet 'Mohamed' Peace And Blessings Be Upon Him In Islamic Indian Literature

د. خالد ناجي السامرائي

كلية العلوم الإسلامية/ جامعة سامراء ـــــــ العراق

ملخص البحث بالعربية

إن أبرز ما ينماز به المسلمون الهنود هو حبهم الجارف للنبي صلى الله عليه وسلم، إذ لا يكاد يخلو بيت من بيوتهم من اسم محمد، ذلك أن الأقليات المسلمة في بلدانها ـــــ ومنها الأقلية المسلمة الهندية ـــــ تتسم بشعور عال بالهوية والانتماء، والحرص على التمايز خوف الذوبان في ثنايا الأكثرية وثقافتها ومعتقدها، لذا حرصوا على إبراز شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه الرمز الأول عند المسلمين، وبيان ما لشخصيته من صفات ومناقب ومنجزات على الصعيد الأنساني.

من تلك الثيمة ومن تجلياتها الأدبية انطلق بحثنا، وفي المقدمة من ذلك فن المديح النبوي. إذ لم يبخل الشعراء الهنود في التعبير عن حبهم الغامر للرسول صلى الله عليه وسلم بل قرضوا في حبه وتعداد مناقبه الكثير من الأشعار والأذكار والرسائل حتى صار المديح النبوي بالعربية والأردية أحد الأركان الهامة لبنيان الأدب الإسلامي الهندي قديمه وحديثه.

الكلمات المفتاحية: المسلمون الهنود – النّبي {صلى الله عليه وسلم}- محمد الشخصية- الهوية – الانتماء – التمايز – المديح – الأدب الهندي.

Abstract

The major distinguishing element of Indian Muslims is their unending love to the prophet(PBUH), as one hardly find a home having a name except Muhammad. The reason is that muslim minorities in general and indian muslims in particular enjoy a high degree of identity and a deep sense toward the prophet. The stress on the theme of identity also comes due to the fair of loss in the very crowd of majority, its many fold faiths and culture. It led them to refer to the prophet (PBUH) as the first and foremost icon to muslims through describing his personality, attributes and achievements along.

The said footprint was followed by literary genere which begins with Madeeh(Encomium of the holy Prophet), as the Indian poets did not lake courage to express their feelings towrads Prophet and his loved ones. Hence, they not only composed poetries but also descriptions and letters as well. And thus, the Madeeh al Nabvi (prophetic genere) has been taken as a basic componant of Indian Islamic literature both ancient and modern.

Key words: Indian Muslims – Prephet (pubh) – Mohamed – Ide,tity – Faith – Culture – Poetry Poets – Madeeh – Indian Poets.

المقدمة

تُعد الهند بدياناتها وطوائفها ومكوناتها المجتمعية وثراها الحضاري والفلكلوري مجالا خصبا للبحث، وكان أن تولدت الرغبة في الإفادة من العلاقات التي تربطنا بالأساتذة والمؤسسات الأكاديمية والإسلامية هناك لإنجاز بحث عن المسلمين الهنود، إذ كان لزاما الجمع بين تخصصنا الأكاديمي الدقيق وهو الأدب الإسلامي ومن تدريسنا لمادة فقه السيرة في كلية العلوم الإسلامية في جامعة سامراء في إنجاز بحث يجمع الحقلين الذي يدور في حومتيهما إختصاصنا الأكاديمي واهتمامنا البحثي وأعني بهما الأدب والفكر الإسلاميين، وهكذا كان القرار بإنجاز بحث أدبي ـــــــــــ إسلامي.

لم يكن إختيار الحقل البحثي ولا عنوان البحث مصادفة بل نبع من رغبة قديمة وملحة راودت الباحث في دراسة أحوال المسلمين غير العرب والإجابة عن تساؤلات اعتملت في خاطره مفادها: ما الذي يعيق تقدم المسلمين ونهوضهم ؟!!

هل هي أسباب بنيوية أم أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية ؟ وهل أحوال المسلمين في البلاد غير العربية يختلف عن أحوالهم في البلاد العربية ؟ وهل أسباب تأخرهم هي نفسها التي أخرت العرب المسلمين أم ثمة أسباب أخرى تتباين عن تلك التي تعيق نهوض العرب ؟ هكذا ولدت فكرة الغوص في أحوال المسلمين الهنود بسلسلة من البحوث، أحدها بحثنا:(النبي صلى الله عليه وسلم وأثره في الأدب الإسلامي الهندي). وهكذا قادتنا الظروف الى الهند وربوعها ومسلميها.

إن المهتم بشؤون المسلمين الهنود لا بد أن تستوقفه جملة من القضايا التي تكررت في حياتهم حتى صارت لازمة لها وعلامة عليها، لعل من أبرزها حب النبي صلى الله عليه وسلم.

سيقول قائل: وهل ثمة مسلم لا يحب النبي ؟!! الجواب: إن المسلمين كلهم يحبون رسول الله، لكن الفارق يكمن في أن شعور الأقليات المسلمة في بلدانها ـــــــــــ ومنها الأقلية المسلمة الهندية ـــــــــــ شعور عال بالهوية والانتماء، والحرص على التمايز خوف الذوبان في ثنايا الأكثرية وثقافتها ومعتقدها، لذا كان توقهم الى إبراز شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه الرمز الأول للمسلمين، وبيان ما لشخصيته من صفات ومناقب ومنجزات على الصعيد الإنساني.

انطلق البحث من هذه الثيمة وتجلياتها الأدبية، وفي المقدمة من ذلك فن المديح النبوي، ولإجل الإحاطة بثنايا الموضوع، مهدنا للبحث بتسليط الضوء على بعض المفاهيم، ثم قسمناه على جزئين، خُصص الأول منها للمديح النبوي بالعربية، أما الثاني فكان البحث فيه يدور حول المدائح النبوية بالأردية، وهي لغة المسلمين في الهند وباكستان وبنغلاديش.

بيّن القسم الأول: (المدائح النبوية في الأدب العربي الهندي) أهم أغراض المديح النبوي، وهي: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ووقعها المحبب في نفوس المسلمين، كيف لا وهو النبي الذي يلهج في يوم القيامة : أمتي أمتي، لم تشغله أهوالها، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. أما المسألة الثانية، فكانت عن أخلاق النبي وصفاته ومناقبه، وهو غرض شائع وطاغ، ويشكل العمود الفقري للمدائح النبوية. بينما كانت المسألة الثالثة عما عاناه الرسول صلى الله عليه وسلم وقاساه من لدد وخصومة وعداوة وإرجاف من عشيرته وأقرب الناس اليه. أما الرابعة فتطرقت لمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الغرض المحبب الى الصوفية خاصة، فهم الأكثر قربا بحكم تركيبتهم الاعتقادية إلى مثل هذه المواضيع .

بدأ القسم الثاني (المدائح النبوية في الأدب الأردي الهندي) كالأول بأغراض المديح، وكانت موضوعاته على التتابع: التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتطهير العقائد، والدعوة الى الإسلام والتفقه بالدين، والشعائر الإسلامية.

كما استعرض القسمان أبرز المدّاحين الذين برعوا في هذا الفن إن كانوا ممن نظم الشعر بالعربية أو الأردية، ومن مختلف الحقب التأريخية، وقد بيّنا في مواضع منهما الجدل الذي أثير حول بعض المدائح النبوية، وعدّها بعض التيارات الإسلامية مآخذ عقدية وشوائب شركية، كالغلو والتهويل في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، أو طلب المدد والتوجه بالدعاء إلى حضرة النبي أو الأولياء والصالحين، أو التبرك بالقبور وشدّ الرحال إلى المراقد والأضرحة وما شابه ذلك، فضلا عن ذلك فقد خصص القسمان جزءا منهما لبيان السمات الفنية والإسلوبية للمدائح النبوية، وشخّصا أهم ما امتازت به هذه المدائح، من الإفراط في استخدام المحسنات البديعية والتزويق اللفظي، وعرّجا على نزعة بعض الناظمين في تقليد قصائد الشعر القديم من الاستهلال الغزلي والتشبيب والوقوف على الطلل، وخلصا إلى نتيجة مفادها: تأخر مدائح الهنود عن مثيلاتها العربية من حيث المستوى الفني والمُكنة الأدبية لأسباب ذكرت في ثنايا البحث، كل ذلك جاء مقرونا بالنصوص الشعرية كلما دعت الحاجة البحثية إلى ذلك.

وبعد أن استوفى البحث أقسامه خلص إلى خاتمته ونتائجه، إذ استعرض أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج وتوصيات، واتّبع ما درج عليه الباحثون من عرض لنتائج بحوثهم سالكين لتحقيق ذلك سبيلين، الأول، اقتباس بعض النتائج من ثنايا المباحث وإعادة ذكرها متدرجة، والثاني، استنتاجات عامة خرج بها الباحث من دراسة المعطيات التي تناولها البحث، مع عدم إهمال الظواهر السلبية التي بها حاجة إلى تقويم وتشذيب، ثم جاءت قائمة الهوامش. وقد أدرجناها متسلسلة كما جاءت في ثنايا البحث مع الحرص على ذكر بيانات المرجع حينما يُذكر للمرة الأولى، والاكتفاء بذكر عنوانه واسم مؤلفه في المرات التالية.

اعتمد الباحث في بناء أركان بحثه والإلمام بمعطيات موضوعه الذي ينبع من بيئة غريبة عنه، إسلوب الاستقراء للنصوص الشعرية، والاستئناس بآراء الأساتذة المتخصصين في هذا الفن الشائع في الهند، فضلا عما أبداه الأستاذ الدكتور مجيب الرحمن رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية في جامعة جواهرلال نهرو والباحثان في مرحلة الدكتوراه محمد سليم وعطاء الله من جهود مباركة وإمدادهم البحث بالمراجع والآراء المفيدة التي كان من شأنها ترصين أركان البحث وتعزيز صدقيته، فجزاهم الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

أخيرا ندعوا الله أن يأتي بحثنا هذا بجديد إلى المكتبة الأدبية العربية، فهو يسلط الضوء على فن شعري شائع في بيئة أدبية بها حاجة إلى الإهتمام والإنارة، هي البيئة الأدبية العربية والأردية في الهند، فإن وفقنا فمن الله، وإن أخفقنا فمن أنفسنا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيد

من الطبيعي أن يحب المسلمون الهنود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحبه جزء

من الإيمان ، ومن الطبيعي أيضا أن يتجلى هذا الحب في مظاهر عدة ، منها انتشار إسم محمد في أوساطهم انتشارا لافتا ، إذ يكاد لا يخلو بيت من بيوتهم من هذا الإسم المبارك ، بل ربما ضم البيت المسلم أكثر من محمد ، مركبا مع صفة من صفات النبي عليه الصلاة والسلام كمحمد أمين ومحمد مصطفى ومحمد أنور ومحمد طه ومحمد رسول ومحمد أكرم ... الخ .

لم يبخل الشعراء الهنود في التعبير عن حبهم الغامر للرسول صلى الله عليه وسلم بل قرضوا في حبه وتعداد مناقبه الكثير من الأشعار والأذكار والرسائل حتى صار المديح النبوي أحد الأركان الهامة لبنيان الأدب الإسلامي الهندي قديمه وحديثه، فقلما تجد شاعرا أو أديبا هنديا مسلما لم ينظم شيئا من الشعر أو النثر في حب النبي والتغني بخصاله الكريمة والتنويه بمكانته العظيمة عند الله وخلقه منذ أن دخل الإسلام في هذه البلاد حتى يوم الناس هذا في جيشان عاطفي وفيض وجداني لافت وباهر.

ولا يعني هذا أن مديح النبي صلى الله عليه وسلم كان مقصورا على الشعراء والأدباء، بل تعداهم إلى علماء الدين والدعاة الذين أمدهم قدرهم اللغوية ـــــــ التي بهم حاجة إليها في مهامهم الدينية ـــــــــــ بأسباب النظم في هذا الباب الواسع والمحبب على منوال أترابهم الأدباء ، لإجل ذلك نجد هذا التفاوت والبون الشاسع في المستوى الفني بين شاعر متمرس وآخر نظم شعرا في حب النبي وتعداد خصاله الكريمة وفي آل بيته وأصحابه يتقرب به إلى الله .

صار حب النبي صلى الله عليه وسلم قاسما مشتركا بين المسلمين الهنود على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وتوجهاتهم، فعبر الآيديولوجيات و لم يقف أمام سيله الجارف انتماء سياسي أو توجه حزبي، فلا غرابة إن وجدنا بعض الشعراء الشيوعيين من المسلمين قد قرضوا قصائد المديح، كفيض أحمد فيض، ونياز أحمد فتحفوري، وآخرين من شعراء الحركة التقدمية.

وفي ظاهرة لا تخلو من الغرابة، نجد كثيرا من الشعراء الهنادك قد نظموا قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تعدى ما نظمه البعض منهم إلى دووين شعرية كاملة.

صنف نور ميرتهي كتابا يحوي قصائد المديح النبوي الأردي لنحو 336 شاعرا، وسماه "به هر زمان وبه هر زبان (أي في كل عصر وعلى كل لسان)، ومن هؤلاء الشعراء: منشي شنكر لال ساقي (1890)، و مهاراجه سر كشن براساد (1359هـ)، و دلورام كوثري (1365هـ) وقد لقبه أحد المتصوفة جماعت علي شاه بـــــ حسان الهند. وبندت ديا شنكر نسيم اللكناوي(ت 1844)، ومنشي درغا سهائ سرور جهان آبادي، (ت1910)، وبندت هري تشاندرا أختر ، وتلوك تشاندرا محروم، وغلزار دهلوي، وفراق غوركفوري... وأمثالهم الكثيرين.

من نافلة القول أن يكون للإيمان بالنبوة دور هام في ازدهار هذا الغرض الشعري ، لكن ثمة عوامل وقرت في عقلهم الباطن دفعت المسلمين الهنود الى الإكثار من هذا الفن الشعري، لعل في مقدمتها إحساسهم العالي بالهوية الإسلامية وسط أغلبية هندوسية تحكم البلاد وتحرص على هيمنة ديانتها وطقوسها على عموم الهند . وليس أصلح من شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم رمزا تبنى عليه الشخصية المسلمة ويتماسك في حبه جسدها . فضلا عن الشوق العارم إلى قرب الحبيب المصطفى في بلاد العرب النائية واتخاذ المدائح النبوية سبيلا لريّ ظمأ المحبين ، فلا غرابة أن نجد كل هذا الحب للعرب ولبلادهم والشوق إلى لقياهم ، فهم أرومة الحبيب المصطفى وقرابته ورحمه.

المدائح النبوية في الأدب العربي الهندي

أغراضه:

إن أغراض المديح النبوي كثيرة، لكن بعضها تكرر بما يسوغ عدّه غرضا رئيسا، من مثل:

ـــــــــ شفاعة النبي:

تعد الشفاعة أعظم الصفات التي احتفى بها الشعراء الهنود ، فنبي سيشفع لأمته يوم القيامة ويدخلها الجنة لجدير بالحب والفداء لذا أظهروا له كل هذا الحب الذي يشع صدقا وإقناعا مع غلبة الروح الإيمانية والنزعة الدينية الدافقة .

وعادة ما تميز الشعر الذي دار حول شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم بمظاهر الفرح والاستبشار والانتشاء بما آتاهم الله من حظ وافر إذ جعلهم في عداد الأمة المرحومة وخصّ نبيهم بمثل تلك المكانة السامية وجعله شفيعا لهم يوم القيامة.

ومن الذين ضمّنوا مدائحهم ثيمة الشفاعة الشاعر الهندي الكبير القاضي عبد المقتدر الكندي الدهلوي (703هـ - 791هـ) الذي قال عنه صاحب كتاب "سبحة المرجان في آثار هندوستان": " هو عالم مقتدر على العلوم الصورية والمعنوية

وكوكب دري أنار الآفاق باللوامع القدسيّة"1 ، يقول عبد المقتدر الكندي عن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأمته في قصيدته الشهيرة المعروفة بـــ "لامية الهند":

ياسيد المرسلين المكرمين آدم شفاعة لعبيد ضارع وجل
أردت مدح نبي الله مجتهدا حتى عجزت فقال العقل لي فقل
ياعبد مقتدر أوصاف سيدنا تعلو علوا عن التفصيل والجمل2

ويكرّر الشيخ عبد الرحمن السيوهاروي المعنى نفسه ، يقول:

من يدفع الهم عن ذي الهم حينئذ ويجمع الشمل حيث الشمل في بددِ
أنت الشفيع لمن قد فاته أمل عند العزيز الجليل الملك الأحدِ3

ـــــــــ أخلاق النبي وصفاته:

اعتنى شعراء المديح النبوي بالجوانب الخُلقية للنبي الكريم اعتناءً كبيرا ، فأكثروا من ذكر مكارم أخلاقه وشمائله الحميدة وخصاله الحسنة التي شهد عليها الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز حين وصفه: "وإنّك لعلى خلق عظيم" ، داعين بذلك المسلمين إلى التأسّي بالنبي ، والامتثال لأوامره ، واقتفاء أثره ، واتباع سنته .

يقول الشاعر عبد المقتدر الكندي الدهلوي واصفا صفات النبي الكريمة:

محمد خير خلق الله قاطبة هو الذي جلّ عن مثل وعن مثلِ
له المزايا بلا نقص ولا شبه له العطايا بلا منّ ولا بدلِ
له المكارم أبهى من نجوم دجى له العزائم أمضى من قنا البطلِ4

وللشاعر الهندي الشهير الشيخ باقر بن مرتضى المدراسي ديوان باسم "العشرة الكاملة" في المديح النبوي ، يمدح النبي الكريم في إحدى قصائده ويشير إلى سجاياه الكريمة ومعجزاته الخالدة وشمائله النبيلة، فيقول:

ليس من قابله قسوة أمن من قاتله بالقنا
بشّر من أنذره جاهلا واصل من هاجره بالجفا
أوضح كالشمس براهينه شيد كالمجد منار الهدى5

ـــــــــ معاناة النبي في سبيل نشر الدعوة:

لقد وظّف شعراء المديح النبوي الشعر لدعوة الناس إلى دين الرحمة ونشر تعاليم الدين الحنيف ورسالته العظيمة ، فبيّنوا لهم طريق الرشاد وسبله ، وشرحوا لهم ما صادفه النبي صلى الله عليه وسلم من اللدد والخصومة والأهوال وهو يدعو الناس إلى الإسلام ليخرجهم من الظلمات إلى النور فيسعدوا في الدنيا والآخرة.

يذكر الشاه ولي الله المحدث الدهلوي في قصيدته المعروفة بالقصيدة البائية أذى قريش للنبي صلى الله عليه وسلم والأهوال التي تحمّلها في سبيل نشر الدعوة وكيف ساموا أصحابه سوء العذاب وأذاقوهم أنواعا من الظلم والاضطهاد والتعذيب ومع ذلك عفا عنهم بدل أن يقتص منهم ، يقول:

وآذاه قوم من سفاهة عقلهم ولم يذهبوا من دينه بمذاهبِ
فما زال يدعو ربّه لهداهم وإن كان قد قاسى أشد المتاعبِ
وما زال يعفو قادرا عن سيئهم كما كان منه عند جذبة جاذبِ

أتانا مقيم الدين من بعد فترة وتحريف أديان وطول مشاغبِ6

ـــــــ معجزات النبي:

إتخذ شعراء المديح من معجزات النبي الكريم وسيلة لإيضاح رسالة السلم والرحمة والذبّ والمنافحة عن الإسلام الذي يحاول خصومه كيل التهم إليه ووسمه بما ليس فيه ولا منه من صفات العنف والتطرف والتكفير، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى مثل هذه المحاولات الجادة والمخلصة لدحض مثل هذه التهم التي ألصقت بديننا الحنيف وبنبينا الكريم، مثلما بنا حاجة إلى توكيد نبوته بذكر المعجزات الكبرى التي تخللت حياته الكريمة ، يقول الشاعر الشاه ولي الله المحدث الدهلوي في إحدى قصائده ذاكرا بعض تلك المعجزات:

ودرت له شاة لدى أم معبد حليبا ولاستطاع حلبة حالبِ

وقد ساخ في أرض حصان سراقة وفيه حديث عن براء بن عازبِ7

ومثلما ذكر الدهلوي معجزة درّ ناقة أم معبد ، ومعجزة عدم تمكن سراقة من قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد أن همّ بذلك فساخت أقدام فرسه في الرمل ، يذكر الشيخ حبيب الرحمان العثماني في قصيدته المعروفة بلامية المعجزات ، معجزة الغار، حين صار صناديد قريش قاب قوسين أو أدنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر في حادثة هجرته الشهيرة، يقول:

وانتدوا للمكر فارتاءت له ثلة من كل مقدام بطلِ

أعميت أبصارهم لما أتوا غار ثور في شقاء ودغلِ8

- **مشاهير الشعراء في المديح النبوي العربي:**

نظم عدد من الأدباء والعلماء الهنود قديمهم وحديثهم شعرا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم من أمثال عبد المقتدر الكندي، وأحمد بن محمد التهانيسري، والشاه ولي الله محدث الدهلوي، والسيد غلام علي آزاد البلكرامي، وعبد العزيز الدهلوي، والشاه رفيع الدين الدهلوي، والشيخ باقر بن مرتضى المدراسي، وفضل الحق الخير آبادي، والشيخ حبيب العثماني، والنواب صديق حسين خان القنوجي، والعلامة أنور الشاه الكشميري، والشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، وغيرهم كثير.

من الجدير بالذكر أن هؤلاء وأمثالهم لا يمكن عدهم من الشعراء ولا من الأدباء، بل من المشتغلين بفنون ومجالات أخرى علمية وفنية كالشاه ولي الله المحدّث الدهلوي الذي كان محدّثا ومفسّرا وفقيها في عهده، والنواب صديق حسن خان الذي كان محدثا وفقيها، وفيض الحسن السهارنبوري فإنه كان من علماء المنطق والفلسفة.

لقد أعانت القدرة اللغوية لهؤلاء واطلاعهم الواسع على التراث العربي فضلا عن معرفتهم بالسيرة النبوية الشريفة، على النظم في هذا الغرض الشعري المحبب ، لقد قرأوا الشعر العربي بعصوره المختلفة بما في ذلك اتجاهاته الحديثة، وكانت بين أيديهم نماذج من أشعار المديح التي قيلت في النبي الكريم في عصور مختلفة، كقصائد حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وقصيدة البردة لكعب بن زهير ومن بعدها نهج البردة للبوصيري وقصائد أخرى كثيرة، كل ذلك ألهمهم وأثر في نفوسهم فنظموا على منواله وقلدوا أسلوبه.

- **الإنحراف العقدي والفكري:**

حافظت معظم المدائح النبوية على الحدود المسموح بها شرعا في وصف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وذكر محاسنه ومناقبه، غير أن البعض منها بالغ وأفرط في ذلك وأخرج النبي الكريم من آدميته ورفعه إلى مقام الألوهية، ما ورطها في الغلوّ والانحراف العقدي.

يقول السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي عن ذلك: " ومن الإنصاف للموضوع أن يقال أنه قد تورّط عدد من أصحاب المدائح في بعض المزالق بتأثير بعض البيئات الموبوءة أو ضعف الثقافة الدينية أو بسبب الإتجاه إلى الغلو والمبالغة التي اعتبرت من سمات الشعر ومحاسنه في كثير من الآداب واللغات والعهود والأدوار وقد أبدى العارفون لروح الدين والغيارى على الإسلام في كل زمان ومكان استنكارهم لذلك واعتبروه شيئا دخيلا طارئا على المديح النبوي"9، ومن ذلك الغلوّ ، نسبة صفات الله الى النبي صلى الله عليه وسلم كقول رفيع الدين الدهلوي:

يا أحمد المختار يا زين الورى يا خاتما للرسل ما أعلاكا
يا كاشف الضرّاء من مستنجد يا منجيا في الحشر من والاكا10

إذ ينسب كشف الضرّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكلنا يعرف أن تلك من صفات الله وحده لا يؤتّاها غيره من العباد، ومثلما وقع رفيع الدين في المحضور العقدي وقع عبد العزيز الدهلوي حين طلب الغوث من قبر النبي صلى الله عليه وسلم، مع إن الله أمرنا أن ندعوه وحده، وأن نطلب العفو منه بلا واسطة، يقول:

وإن جرتم عليّ فلي غياث بباب المصطفى خير الأنامِ
فمدحك رقيتي وشفاء دائي إذا ما خضت في لجج السقامِ
فمن لي بعد ما وهنت عظامي إذا ما اشتد البلاء سواك حامي
وإن أك ظالما عظمت ذنوبي فحبّك سيّدي ماحي الآثامِ11

وقد جعل الشيخ باقر بن مرتضى المدراسي النبي صلى الله عليه وسلم ملجأ المخلوقات وملاذها الحامي في الدارين فيقول:

يا ملجأ الكونين في الدارين يا خير الأنام وسيد السادات12

وهكذا نرى أن غير واحد من الشعراء الهنود وقع في خطأ عقدي، إما لقصور في فهم الإسلام والتبحر في عقائده أو لغلبة عاطفة حب النبي صلى الله عليه وسلم وجنوحها ما أوقعهم في المبالغة والغلوّ، وكان الأجدر بشعراء المديح النبوي التحرز وتجنب الوقوع في شوائب شركية تسيء إلى الإسلام قبل إساءتها إلى الشاعر.

هذا الأمر حفز عددا من الباحثين والدعاة للكتابة فيه والتنبيه على خطل أحكامه والتوعية في تجنب الوقوع فيه، بل ذهبوا أبعد من ذلك حين إتهموا الجانحين إلى المغالاة، بالشرك !!!

من هؤلاء الدكتور صدر الحسن الندوي الذي قال في هذا الشأن: " قد قرّر العلماء أن من آداب المديح النبوي عدم الغلو والإطراء في وصفه صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز لنا أن ننسب إليه الأمور التي لم تثبت بالرواية الصحيحة كما لا يجوز أن نخلع عليه خلعة الألوهية كما يفعله بعض الجهلة الذين أرادوا مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فوقعوا في الشرك أعاذنا الله منه"13

- **السمات الأسلوبية والفنية لشعر المديح النبوي العربي:**

حاكى الشعراء الهنود في مديحهم النبوي قدامى المداحين في الأسلوب الشعري والبناء الفني والمضمون المعنوي، مثلما حاكوا من سبقهم ومن لحقهم من كبار الشعراء العرب، فقد أتاحت لهم المدارس الدينية التي تخرجوا منها دراسة أشعار الفحول، فوقفوا

مثلهم على الديار وبكوا الدمن والأثافي، وتذكروا الأحبة والأهل، وبدأوا قصائدهم بالتشبيب والغزل، ولا غرابة في ذلك لأن المرء ابن بيئته، فإذا كانت البيئة التي نشأوا وترعرعوا فيها تركن إلى قراءة الشعر القديم وتجنح إلى الإهتمام به، فإنهم أيضا مالوا إليه واحتذوا حذو أهله، وهم في كل ذلك نظموا في ضروب البيان المختلفة، وقرضوا شعرهم على وفق الأساليب الشعرية التي توارثوها.

فها هو الشاعر الهندي القدير القاضي عبد المقتدر الكندي الدهلوي الذي له إسهامات كثيرة وقيمة في المديح النبوي يستهلّ قصيدته المعروفة بـــ "لامية الهند" بذكر الأطلال والديار على غرار الشعراء الأوائل، فيقول:

يا سائق الظعن في الأسحار والأصل سلّم على دار سلمى ثم سلِ
عن الظباء التي من دأبها أبدا صيد الأسود بحسن الدل والنجلِ14

ومثله يبدأ "حسان الهند" غلام علي آزاد البلغرامي قصيدته بالتشبيب فيقول:

رمت أسماء قلبي في الصلاء تشمم منه رائحة الشواءِ
طلبت عناية منها فسلّت على أمنيتي سيف الإباءِ15

وعلى الرغم من شيوع ظاهرة محاكاة الشعراء العرب القدامى في أساليبهم، لا نعدم وجود شعراء تحرجوا من التشبيب والغزل في صدور قصائد المديح النبوي، اذ رأوا أن ذلك ليس موضعه وأن مقام النبي لا يصح معه أن يقرن بالتغزل والتشبيب، فامتنعوا عن ذلك ونصحوا الآخرين بتركه وعدوه من بقايا الجاهلية واجبة الترك.

فها هو الشاه ولي الله المحدث الدهلوي يستهل قصيدته الهمزية في المديح النبوي بالتحذير من سلوك مسلك الشعراء القدامى التي حث الإسلام على تركها، فيقول:

وإن بينت في المنظوم وحدا فحاشا أن تشبّب بالنساءِ
فتلك شرائع للشعر قدما وقد نسخت بختم الأنبياءِ16

ومثلما قلّد المداحون الهنود أقرانهم من الشعراء العرب في استهلال القصيدة عارضوا قصائدهم المدحية الشهيرة، كعبد المقتدر الكندي الذي عارض لامية العرب للشنفرى ولامية العجم للطغرائي وعرفت قصيدته ب"لامية الهند" ، واحتذى حذوه غلام علي آزاد البلكرامي فنظم قصيدته المعروفة بالقصيدة اللامية، إلا أنهما لم يستطيعا أن يرتفعا بقصيدتيهما إلى مقام قصيدتيّ الشنفرى والطغرائي، لا من حيث الموضوع، ولا من حيث البناء الفني والشكلي.

على الرغم من محاولة الشعراء الهنود اللحاق بركب فحول الشعراء العرب من خلال محاكاتهم أو تقليدهم أو معارضتهم، لم ينجحوا في الاقتراب من مكانتهم الشعرية، و لم تحز قصائهم ما حازته قصائد العرب من مزايا، وربما يعود سبب ذلك إلى افتتان الهنود بالمحسنات البديعية وإكثارهم من الزخارف اللفظية كالتورية والجناس وغيرهما من ألوان البديع، وقد نبه على ذلك بعض الباحثين كعبد الحي الحسني الذي نقد شعر فضل الحق الخيرآبادي قائلا: "كم له من قصائد وأشعار أتى فيها بكل لفظ لطيف ومعنى بديع لولا أنه أكثر فيها من التجنيس والاشتقاق"17

إن ضعف وهلهلة الكثير من المدائح الهندية يعود إلى الضعف العام الذي انماز به الشعر العربي في الهند، وقد لخص الدكتور أحمد ادريس ذلك بقوله: "شعراء العربية في شبه القارة الهندية قلّدوا و لم يبتدعوا، وحين فتح الشعر العربي عندهم عيونه ليتعرف على ما حوله كان الموجود أمامه من الشعر العربي جامدا في موضوعاته، ساذجا في فكره، وأغلبهم فهم – وربما اعتقد – أن المهم في صنعة الشعر هو الأسلوب والألفاظ لا المعاني، وشعراء العربية في شبه القارة لم يخرجوا عن تقليدية الموضوعات، فالرثاء ومدح

الرسول والسلاطين والأمراء هي الموضوعات الأساسية التي شكّلت العمود الفقري للشعر العربي في شبه القارة، وإن وجدت موضوعات أخرى فهي ثانوية لا أساسية"18.

لكن هذا لا يبخس الشعراء الهنود حقهم ولا يثلم من أهمية إسهامهم الشعري ولا من إنجازهم الدعوي الذي استثمروا فيه طاقة الشعر وقدرته على التأثير.

المدائح النبوية في الأدب الأردي الهندي

أغراضه:

لم يختلف المديح النبوي الأردي كثيرا عن مثيله العربي في الموضوعات التي تناولها، فقد كانت موضوعاتهما متقاربة ودارت معظمها حول شخص النبي صلى الله عليه وسلم، ومحاسنه، وأوصافه الخَلقية والخُلقية، وسيرته ومعاملاته، وصفاته التي وردت في القران الكريم.

أما أغراضه الرئيسة فكانت التيمن والتفاؤل وحصول البركة، بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والاعتزاز بالانتماء إليه، والدعوة إلى الله من خلال إبراز مكانة النبي صلى الله عليه وسلم ودوره في إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الوحدانية، والحث على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وصولا إلى طاعة الله، وإبراز جوانب من السيرة النبوية الشريفة، وإبلاغ رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الناس أجمعين.

وقد أجمل بعض الباحثين الصور التي قدم شعراء المديح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث " الصورة الأولى هى صورة الشعر الصوفي، وفيها مدح النبي صلى الله عليه وسلم وإبراز شخصيته وأوصافه بهدف شرح نظرية أو تبليغ عقيدة، أما الصورة الثانية من غرض المديح النبوي، وهو أن يبدأ الشاعر ببعض الأشعار فى حمد الله والثناء عليه، وبعض الأشعار فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم، ثم بعض الأشعار فى بيان مناقب الصحابة الكرام وخاصة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين، ثم يلى ذلك بعض الأشعار فى مدح سلطان العصر، وبعدها يبين الشاعر سبب منظومته ، ثم يدخل إلى المنظومة مباشرة، و لم يشذ عن هذا التقليد إلا القليل . ومن ثمّ فإن المديح كان تقليديا لا جديد فيه، بل ولا تبرز فيه شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بشكل واضح مؤثر، وإنما شخصية مقدسة مباركة معجزة. والصورة الثالثة التى تظهر فيها شخصية النبى صلى الله عليه وسلم هى الصورة التي نجدها عند إقبال وأمثاله الآخرين والتي أرادوا بها تبليغ رسالة معينة أو فكرة خاصة إلى المسلمين من أهل شبه القارة الهندية خاصة، وإلى المسلمين كافة ، وهذه الصورة تتميز عن سابقتيها بأنها صورة حية تجري فيها الروح وتملؤها الحركة والحياة"19.

من ذلك نخلص الى أن الصورة الثالثة التي قدم بها النبي صلى الله عليه وسلم هي المعوّل عليها، إذ كانت بمثابة دراسة شخصية الرسول ليقدم من خلالها إنموذجا للمسلمين يحتذونه ويسيرون على نهجه فى حياتهم، مع تأكيد مسبق بأن هذا النموذج هو الأمثل والأفضل، وليس ما قد يفرض عليهم من نماذج بشرية أخرى تبهر أنظارهم ببريقها الزائف مثلما هو الأمر مع المدنية الغربية20.

أما أهم المحاور التي تناولتها المدائح النبوية الأردية وعملت على ترسيخها في نفوس المسلمين الهنود، فهي:

ـــــــــ التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم:

ف"المدائح النبوية" تتطلب منا اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في شتى مجالات

حياتنا، لأجل سعادتنا وإحراز النجاح في حياتنا. فهو الرحمة للعالمين، والشفيع للمذنبين يوم القيامة،المكرم بالمقام المحمود، والمعطى الكوثر، والواجب الطاعة والاتباع، الصلاة عليه واجبة وتصديق معجزاته فريضة، وما أصدق ما قاله الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي ذات مرة في "ندوة حول المدائح النبوية العربية في الهند: أصلا وترجمة": "ومطلوب من الإنسان أن يجعل هذه المدائح

النبوية إنموذجا في كل مجال من المجالات الحياتية، ونحن أولى بأن نتصف بهذه الصفات العليا التي أُكرم بها الإنسان. وإذا اتصف الإنسان بالصفات النبوية يمكن أن يقود العالم"21.

لكن الحقيقة والواقع الهندي المعيش لا ينمان عن ذلك، فحب النبي صلى الله عليه وسلم لا يعدو عند الكثير من المدّاحين والقارئين، بل ومعظم المستمعين أيضا عن أن يكون دعاوى كلامية فحسب، وليس له أثر ملموس في حياتهم، صور شاعر أردوي هذه المفارقة العجيبة قائلا:

ترے حُسنِ خُلق کی اک رمق میری زندگی میں نہ مل سکی
میں اسی پہ خوش ہوں کہ شہر کے تمام دروبام کو تو سجادیا
میں ترے ''مزار کی جالیوں'' ہی کی مدحتوں میں مگن رہا
ترے ''دشمنوں'' نے ترے چمن میں خزاں کا جال بچھادیا22

وترجمتها: لاتعكس حياتي شيئا من مكارم أخلاقك، وبالرغم من ذلك أنا سعيد بتزيين مدينتي من أقصاها الى أدناها(بمناسبة ذكرى الميلاد)، ومازلت فرحا مستبشراً في وصف شبابيك ضريحك، إلى أن أفسد الأعداء علينا أمر دينك..

ـــــــــــ تطهير العقائد:

ومن تأثيرات المدائح النبوية إسهامها في تطهير عقائد المسلمين مما شابها من شوائب الغلو في شأن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، بشتى أنواعه من الاستمداد منه، والاستغاثة به، ووصفه بالصفات الربانية، وما شابه ذلك.

ـــــــــــ الدعوة الى الأسلام والتفقه بالدين:

ومن تأثيراتها الإيجابية أيضا التوعية الدينية ونشر الرسالة وبسط حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين وغيرهم، فضلا عن تعليم الإسلام وعباداته ومعاملاته وشرعته وفقهه وسنة نبيه المثل الأعلى، بما يساعد على إيجاد رؤية عصرية لحل معضلات المجتمعات إنطلاقا من قوله تعالى: "وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"23. فقد صار ملحّا إبراز السمات الرائعة في شخصية النبي لدفع التهم التي يحاول أعداء الأسلام إلصاقها به، فضلا عن سعي أتباع الديانات الأخرى إلى إبراز رموزها في القنوات الفضائية ووسائل الأعلام الأخرى بواسطة الأفلام الكارتونية الهندوسية والمسيحية، مثل تشوتا بهيم، وبين تين، ودورامون، ولف ايند كش، والكثير من الأفلام التي تتحدث عن شخصيات الديانات الأسطورية، وتحببها إلى قلوب وعقول الأطفال المسلمين ويهدد بفتنتهم.

ـــــــــــ الشعائر الأسلامية:

وبفضل المدائح ازدادت علاقة المسلمين لا بالرسول وآله وصحبه ومَن والاهم فحسب، بل تطورت علاقاتهم بالشعائر الإسلامية الأخرى الموجودة في أرض الحجاز لكثرة ترددها في المدائح، خاصة في مكة والمدينة، الأضرحة، والمساجد، وغار حراء، والصفا والمروة، وضريح النبي، والمسجد النبوي الشريف، و لم يحتفِ المداحون برمز إسلامي حفاوتهم بقبة المسجد النبوي الخضراء.

تاريخ المديح النبوي الأردي ومشاهير الشعراء فيه:

يُعد المديح النبوي عنصرا قارا في آداب العربية والفارسية، حيث نبغ في هذا الفن الواسع الانتشار العديد من الشعراء واحتفوا بنبيهم بمدائح كثيرة لا حصر لها، وعندما قامت اللغة الأردية على أكتاف العربية والفارسية اهتم الشعراء بالمديح النبوي منذ نشأة الأدب الأردي.

بدأ المديح النبوي الأردي رحلته من جنوب الهند وبالتحديد من "دكن" متجها إلى شمال الهند. وسقى رياض المدائح النبوية الأردية جحافل من الشعراء بداية من ولي دكني إلى أمير مينائي، ثم حمل رايته أحد عمالقة الأدب الأردي ألطاف حسين حالي، إلى أن وصلت الرحلة إلى ظفر علي خان، ثم رحب بها الشاعر الشهير العلامة إقبال24.

ويرى الناقد الكبير المولوي عبد الحق أن قصب الريادة في المديح النبوي الأردي يذهب إلى الصوفي بنده نواز غيسودراز، في حين يرى الناقد جميل جالبي أن المثنوي "كدم راو بدم راو" للشاعر فخر الدين النظامي هو نقطة الإنطلاق للمديح الأردي.

ومن رواد المديح النبوي الأردي: برهان الدين قطب عالم، والشيخ صدر الدين، وشاه ميران جي، والشيخ بهاء الدين باجن، وكبير، والشاه أشرف السابابي، والقاضي محمود درياي، والشاه علي محمد جيوغام داني، وميرتقي مير، وداغ، ورسوا، وأصغر غوندوي، وبهزاد لكناوي، أحمد رضا البريلوي، وحسن رضا خان حسن بريلوي، وشاد عظيم آبادي وآخرين...25

كما يمكن أن نعد أبرز شعراء الجيل الذي تبع الرواد فيض أحمد فيض، وأحمد نديم قاسمي، وقتيل شفائي، وأنور سديد، وعطاء الحق القاسمي.

ثم توالت الأجيال وصولا إلى ماهر القادري، وشفيق جونفوري، وحفيظ جالندهري، ونعيم صديقي، وعروج قادري، وعامر عثماني، وأبوالمجاهد زاهد، وحفيظ ميرتي، وكليم عاجز، وحفيظ بنارسي، وعزيز بغروي، ومسعود جاويد هاشمي، وقيصر الجعفري، وأبوالأثر حماد أنجم، وتابش مهدي، وأبو الفاروق شعور، ورؤوف خير (حيرت بستوي)، وسالك بستوي، وحفيظ محمد بلند شهري، وتابش ماليغانوي.

وقد نبغ عدد كبير من المداحين الذين اتخذوا المدائح موضوعا وحيدا لقصائدهم، من مثل الشاعر المبرّز محسن كاكوري الذي لم يخط بيمينه إلا القصائد المدحية.

تتابع التأليف في المديح النبوي عبر الأجيال، على صورة قصائد أو مقطعات أو دوواين مستقلة أحادية الغرض، حتى تكاد لا تعدم شاعرا كتب بالأردية لم يكتب شيئا من المديح النبوي، في الحفلات الدينية، أو في "المساجلات الشعرية" أو"المشاعرة"، وقلما تخلو الصحف والدوريات والمجلات التي تصدر بالأردية من المدائح النبوية، الأمر الذي سوّغ لبعض الباحثين عدّ الأردية اللغة الثانية من حيث النتاج في المديح النبوي بعد العربية26، وإن ذهب الشيخ العلامة أبو الحسن علي الندوي إلى أن الفارسية وليست الأردية هي الثانية بعد العربية في عدد المدائح النبوية التي تحويها27.

نماذج من المدائح النبوية:

وصل إلينا من شعر المديح النبوي كم هائل، فيه الغث والسمين، لذا سيورد البحث نماذج شعرية من شعر المبرّزين في هذا الفن، منهم "محسن كاكوروي" (ت 1323هـــــ) الذي وقف حياته كلها على شعر المديح النبوي، لم يكتب غيره. ومن أهم أبيات المديح عنده، في معجزة الأسراء والمعراج:

"أيقظ النبيَ الكريم في أدب وتواضع، بل أيقظ – في تعبير أصح وأفصح – حظه وجده وطالعه، فإذا هو صلى الله عليه وسلم يرى في هذا الليل من العجب العجاب ما يأخذ بالألباب، أن تتابع الأيام والأعوام، وتقلب الليل والنهار، لم يلدا ليلة مباركة كهذه الليلة، أن هذا الإكرام الذي نالته الأرض في هذه الليلة لاتناله الآن إلى الأبد، ولو أصبحت تبرا وتحولت درا وجوهرا وإكسيرا، تتابعت فيها الرحمات كالندى واتصلت الأرض بالسماء"28.

ويقول العلامة ألطاف حسين حالي، وهو تلميذ ميرزا غالب يمدح خير البرية صلى الله عليه وسلم، ننقل هنا ترجمة أشعاره، عرّبها الشيخ الندوي لئلا يطول بنا الكلام: "لقد خص من بين النبيين بلقب "رحمة للعالمين" هو الذي كان من دأبه إسعاف

حاجات الفقراء، وتحقيق رغباتهم المكبوتة، وكشف كربات الأعداء البعداء، ومشاركة البعيد والقريب في أحزانهم ونوائبهم، يتألم بألمهم، ويفرح بفرحهم، ملجأ الفقراء، ومأوى الضعفاء، وولي الأيتام، ومربي العبيد والأرقاء، يصفح عن الأخطاء، ويُحسن إلى من أساء، ويصلح ما أفسده الناس، يوحّد القبائل المتناحرة، ويؤلف بين القلوب المتنافرة ....إلخ"29.

كما أدلى الشاعر الكبير "ظفر علي خان" (ت 1956م) دلوه في مجال المدائح النبوية، ونظم أبياتا تتسم بجمال البحر وأناقة الوزن، وحسن النغمة، واللحن، كما نرى في الأبيات التالية: "إن السراج المنير الذي ظل سنين طوالا يتلألأ في الخلوات، وفي بئية محددة، لقد سبق علم الله أن تستنير به مجالس الملوك والعلماء وتقتبس نوره، وتمشي في ضوئه قوافل العلم والحضارة، إنه سر الوجود، ولولا دينه ورسالته، ولولا نبوته وبعثته، لما أخذت الأرض زخرفها، ولما أكملت السماوات زينتها"30.

ويعد إقبال أحمد سهيل (ت 1955م) من المجيدين في المديح الأردي، حيث فاض لسانه مادحا نبينا صلوات الله وسلامه عليه، في قصيدته الشهيرة الموسومة بـــــ "موجِ كوثر": وترجمتها:

"غرة ناصية البشرية، ونور جبين الإنسانية، النبي الذي بدد ظلمات الكفر، ونثر درر الإيمان، ورفرف راية التوحيد، حارس حديقة البشرية، وروضة الإنسانية، ألغى عادة الرق، وحطم سلاسل العبودية والذل، أعاد إلى الروضة رواءها وأفاض عليها خيرها، وبركتها، كانت أسرة البشرية متفرقة، فجمعها على مائدة واحدة، وكانت لآليء الحق والإيمان منتشرة ضائعة، فربطها في سلك واحد. قضى على أوهام الجاهلية، وخرافات الوثنية، وأتاح للإنسان أن يتصل بالخالق الأحد الصمد، صب على من عاداه وآذاه رشحات حبه وعفوه، وشمله برعاية عطفه، وحنانه، جمع بين سلطان الفقر والغنى، والجسد والروح، والدين والدنيا، صلى الله عليه وسلم"31.

ويقول صاحب "شاهنامه إسلام" حفيظ جالندهري واصفا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه ردّ إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها، وإلى أفراد النوع الإنساني حقَّهم في الحياة، نكَّس الباطل، وقلب عروش الملوك الجبابرة، رفع رأس كلِّ إنسانٍ صابرٍ، وشرّفَ قدر الأجير، وأهان المُثري المستأثِر، لقد كان الفقرُ فخرَه، ولكنه كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه، إنه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التي يصعب كسرها، وجَبَرَ القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب جبرها، فصلوات الله عليك يا مَنْ كان كسره معجزةً، وجبره معجزة!"32

ومن روائع المدائح النبوية التي جرت على لسان أفحل الأدباء الإسلاميين "ماهر القادري": "أقام الصلة بالرب، وفك طلاسم الباطل، وغير مجرى التاريخ، وأنزل السفينة على بر الأمان والسلامة والإيمان، رغم أمواج هائلة، ورياح عاتية، منح الإنسانية سيفا ومصحفاً، ودنيا وآخرة، وجعل الموت شهادة، وعلّم آداب الحياة"33.

ويمدح الشاعر الأردي الكبير العلامة الدكتور إقبال صلى الله عليه وسلم بروحه: "إنّ قلب المسلم عامرٌ بحبّ المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو أصل شرفنا، ومصدر فخرنا في هذا العالم، إنّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى، كان يرقد على الحصير، إن هذا السيد الذي نام عبيدُه على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد، فكان أن وُجدت أمةٌ ووُجد دستورٌ، ووُجدت دولةٌ، إذا كان في الصلاة، فعيناه تذرفان دمعاً، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً"34.

الإنحراف العقدي والفكري في المدائح الأردية:

يمكن تلخيص مظاهر الإنحراف العقدي والفكري في المديح الأردي في الأمور الاتية:

ـــــــــ الغلو في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

بداية، لابد للشاعر أن يراعي الفوارق ما بين النبوة والألوهية، لكن شاع في المديح النبوي الأردي توجيه النداء إلى الرسول، والاستمداد منه، والاستغاثة والاستعانة به، مع أن الله تعالى هو كاشف الضرّ، وهو الذي ينجي من كل كرب، ويجيب دعوة الداع والمضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عن عباده، فضلا عن التمسح بالحجارة وطلب البركة منها، أو توحيد ذات النبي صلى الله عليه وسلم والذات الألهية وعدهما شيئا واحدا، بل ذهب البعض الى أبعد من ذلك حين عدّ النبي هو الله تجلى بصورة رجل اسمه محمد، أو الاعتقاد بأن البشر هم عبيد للرسول صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي يبين بوضوح عن انحراف عقدي وفكري، بل ذهب البعض ـــ من الموسومين بالتشدد ـــ إلى عده شركا بواحا!، يتضح ذلك من خلال قول جلال اللكناوي:

شرف كعبے كا ہے گر طواف كرنے آئے مرقد كا ترى چوكھٹ كو وہے فخر ہے يہ سنگِ اسود كا ،

وترجمتها: من شرف الكعبة أن تتطوف بضريح الرسول، ومن شرف الحجر الأسود أن تجيء إلى عتبة الضريح لتقبيلها.

ويقول ماني جائسي: (مدينہ سجدہ گاہِ آفتاب وماہ و اختر ہے)، أي أن المدينة المنورة هي موضع السجود للشمس والقمر.

ويقول أحمد رضا خان البريلوي: " جس كے سجدے كو محرابِ كعبہ جھكى"، أي ان النبي هو الذي انحنى محراب الكعبة ساجدا له.

ويقول: (رب ہے 'معطى' يہ ہيں قاسم رزق اس كا ہے كھلاتے يہ ہيں)، أي أن الرب هو المعطي وهذا (محمد) قاسم، فالرزق لله ويُطعمنا محمد.

ومن ذلك توحيد البعض في شعره ما بين الذات الألهية وذات الرسول صلى الله عليه وسلم أو الخلط بينهما وتبادل نسبة الصفات إلى بعضهما البعض، كقول الشاعر الشهير ناسخ:

" معانى قل ہواللہ احد كے ہيں عياں ناسخ برائے قافيہ ركھا ہے ميں نے ميم احمد كا"، أي توحيد الله تعالى المشار إليه في سورة الإخلاص مفهوم ببساطة، الأحد وأحمد كلاهما شيء واحد، والميم الفارق بينهما لايفرق بينهما، بل أُضيف لضرورة اقتضت القافية، يعني لافرق بين الله ورسوله محمد. وتمادى الشاعر عاصي الغازيفوي في قوله: " وہى جو مستوىٔ عرش تھا ''خدا'' ہوكر اتر پڑا ہے وہ مدينے ميں مصطفى ہو كر "، أي هو الذي كان إلهاً مستوياً على عرشه، نزل بالمدينة في صورة محمد"، ويقول الشاعر تسليم اللكناوي: "عرش وكرسى جب عدم تھے جلوہ گستر كون تھا؟ سامنے خالق كے جز ''نورِ پيمبر'' كون تھا؟ " أي قبل أن خلق الله العرش والكرسي، كان نوره صلى الله عليه وسلم يتمثل بين يدي الرحمن.

يعود معتقد انكار آدمية النبي صلى الله عليه وسلم إلى تأويل الآية الكريمة "قد جاءكم من الله نور وكتب مبين"35، ورواية لحديث منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم نصه: "أول ما خلق الله نوري"36

ومن مظاهر الغلوّ في حبه صلى الله عليه وسلم اعتقاد البعض أنهم عبيد للرسول، كما يقول أحمد رضا خان البريلوي: "ہم ہيں عبدِ مصطفى، پھر تجھ كو كيا"، أي نحن عبيد مصطفى، وهل فيه حرج؟ ومنها استخدام تشبيهات فاسدة لا تليق بشخص النبي صلى الله عليه وسلم، كتشبيه الشاعر محسن كاكوروي شخصية الرسول ب(سري كرشن)، قائلاً: " ديكھئے ہوگا 'سرى كرشن' كا كيوں كر درشن سينۂ تنگ ميں دل گوپيوں كا ہے بے كل"،

وسري كرشن هذا هو شخصية هندوسية أسطورية، كان يتغزل بالنساء، اللواتي يطلق عليهن "غوبيان" وقد شبه الشاعر نفسه وأمثاله بهن، ووصف حنينه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بحنين غوبيان إلى سري كرشن وتطلعهن إلى لقائه في كرشنا"..

ـــــــــ الموسيقى:

تعتقد بعض التيارات الإسلامية في الهند بحرمة الموسيقى بعامة، لذا رأت أن حرمتها أشد في حال مصاحبتها لأشعار المديح النبوي، فما بالك لو صاحب الرقص الإثنين ؟!! مثلما حصل عندما شاع القوالي والمُجْرى37 في الهند منذ أواخر العصر المغولي، حين اتخذ القوّالون "المدائح النبوية" مادة خام لوصلاتهم الغنائية والراقصة، واستمرت هذه العادة إلى يوم الهند هذا، يهواها أناس ويبالغون، ويدخلون فيها طقوسا أقرب إلى الهندوسية منها إلى الإسلام ، وثمة أناس، مع ميلهم إليها، لا يحبذون المبالغة فيها، بينما فريق ثالث يحرّمها ويعدها من مزامير الشيطان التي ينبغي أن لا تصاحب كلاما نظم في مدح خير الورى، ويشتد فريق رابع في حرمتها حتى يعدها من الشركيات المكفرة.

وعادة ما يحدد المعتقد موقف المتلقي من مظاهر الموسيقى والإيقاع والرقص المصاحبة للمدائح النبوية، فالصوفية بغلاتها ومعتدليها يمثلان الفريقين الأول والثاني، والسلفية أو ما يسمى في الهند بأهل الحديث بمعتدليها وغلاتها يمثلان الفريقين الثالث والرابع.

ومما زاد الطين بلّة في نظر المحرمين لهذه الظاهرة، جنوح البعض إلى صياغة مدائح نبوية مغناة على ألحان أغاني حب شهيرة من أغاني أفلام بوليوود، على سبيل المثال، فإن قصيدة:

"در پہ بلاؤ ! مکی مدنی بگڑی بناؤ! مکی مدنی"

تغنى على لحن أغنية:

"گھر آیا مرا پردیسی پیاس بجھی میری اَکھیَنْ کی"

وقصيدة:

"مری بات بن گئی تری بات کرتے کرتے

ترے شہر میں میں آؤں تری نعت پڑھتے پڑھتے"

نظمت على الوزن واللحن ذاتهما للأغنية السينمائية:

"یونہی کوئی مل گیا تھا مجھے راہ چلتے چلتے "

وقصيدة:

"اے سبز گنبد والے منظور دعا کرنا

جب وقتِ نزاع آئے دیدار عطا کرنا"

شبيهة بوزن وقافية ولحن أغنية سينمائية هي:

"بچپن کی محبت کو دل سے نہ جدا کرنا

جب یاد مری آئے ملنے کی دعا کرنا".

السمات الأسلوبية والفنية للمديح النبوي الأردي:

إن أهم ما ميز المديح النبوي الأردي محسناته البديعية، وصناعته اللفظية والمعنوية، كاستخدام التشبيهات النادرة المبتكرة، والتفنن في نظم قصائد كاملة غير منقوطة، فضلا عن تخصص بعض الشعراء في هذا الفن ونظمهم لمجاميع شعرية تحوي قصائد في المديح النبوي حصرا، مثل مجموعة راغب مرادآبادي الشعرية "مدح الرسول" التي نشرها في عام 1983م والتي تحتوي على أربعين

قصيدة، وثلاثين رباعية، كلها في المديح النبوي، ولأجل ذلك يقول الناقد غوهر ملسياني " ... وعلى هذا، اعتقد، أنه لابد من عدّ المديح النبوي من الأدب العالي"38.

لا غرابة إن استحسن الهنود بشعرائهم ومتلقيهم المحسنات البديعية والفذلكات اللغوية والتصنع في نظم الشعر، فهم بعيدون كل البعد عن المعايير الفنية التي وضعها النقاد العرب القدامى للشعر الجيد، فقد ظلوا حبيسي الذائقة الملائية للشعر، وظلوا أقرب إلى الذوق الشعري العربي في عصور انحطاطه وصولا إلى شعر الوعاظ والمنشدين الدينيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

الخاتمة ونتائج البحث

تتراوح مقاصد المديح النبوي الهندي بشقيه العربي والأردي بين من كتبها على سبيل التيمن والبركة، ومن حاول إثبات شخصيتة الأدبية وضمان انتشارها في الأوساط الشعبية بعد أن صار المديح النبوي الغرض الشعري الأكثر شعبية وانتشارا بين المتلقين الهنود، وآخر رأى في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة ومثالا أعلى يحتذى في شتى مناحي الحياة ورمزا إسلاميا يقارع به رموز الهندوس وشخصياتهم الدينية والأسطورية على السواء، وآخر اتخذ من المديح النبوي وسيلة للدعوة ونشر الإسلام لما في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من محتوى إنساني وفيض إصلاحي يغري أتباع الديانات الاخرى التي ترزح تحت نير الطبقية وذلّ العبودية.

يعود تاريخ المديح النبوي الهندي إلى العربية ومنها انتقل إلى الفارسية ومنهما إلى الأردية، لأن العربية والفارسية هما البنيتان التحتيتان لنشوء اللغة الأردية، وعلى الرغم من الأسبقية التاريخية للفارسية على الأردية، فإن الأردية لا الفارسية هي من يحتل المرتبة الثانية في عدد المدائح النبوية بعد العربية.

يكاد الشعراء المسلمون الهنود كلهم قد نظموا في باب المديح النبوي، بل تعدى ذلك إلى العديد من الشعراء الهنادس الذين تغنوا بمحبة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ونظموا فيه القصائد والدوواوين، اذ رأوا فيه مثلا أعلى للإنسانية والرحمة والأخوة العالمية، عبرت رسالته الآفاق ونشرت معاني السلام في ربوع المعمورة.

انقسمت المدائح النبوية من حيث السلامة العقدية على نوعين، منها ما هو سليم ومنها ما يشوبه الغلوّ والشطط، وعلى الرغم من انتشار المدائح الغالية فأن المدائح السليمة كانت وافية في إثبات شخصية الرسول وعدم السماح بالطعن عليها، وكافية لإبراز مثاليته.

لعبت المدائح النبوية دورا فاعلا في ترسيخ حب الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين الهنود، فحب المسلمين الهنود للنبي صلى الله عليه وسلم يبلغ الغاية القصوى، ولا فرق في ذلك بين الجاهل منهم والمثقف، ولا بين الملتزم دينيا والمتهاون، فالجميع يلهج بذكر النبي ويتهلل وجهه بشرا كلما سمع لفظ "محمد" في خطب الجمعة، أو الندوات أو المؤتمرات أو الجلسات، ويسارع بالصلاة عليه "صلى الله عليه وسلم"

لكن اللافت، أن المدائح النبوية خلقت حبا عميقا في نفوس الهندوس أيضا، وبسبب منها مدت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وشائج حميمة معهم، ما دفع البعض من شعرائهم إلى نظم القصائد وتدبيج الدواوين في حب النبي وذكر مناقبه، الأمر الذي قرّب الكثير منهم إلى الإسلام واستثمره الدعاة وحصدوا غلته أفواجا من الهندوس الداخلين في دين الله.

ومن نتائج بحثنا: اقتصار المديح النبوي في بلاد العرب على مريدي الطرق الصوفية، وتعامل أنصار المذاهب الاخرى معه بحذر وعدم ارتياح في كثير من الأحيان، وتسفيه وتفسيق في بعض الأحيان، بينما نجده عند المسلمين الهنود عابرا للمذاهب

والاجتهادات، يحبه ويتبرك به الجميع، و لم يعارضه من حيث المبدأ أحد من التيارات السائدة هناك، بل اقتصرت اعتراضات السلفيين الهنود على ما عدوه شوائب شركية شابت بعض المدائح، كطلب المدد من النبي والصحابة والأولياء والصالحين، أو ذكر القبور والأضرحة والتبرك بها، أو مصاحبة الموسيقى والرقص الأيقاعي لقصائد المدح، وغيرها.

لقد حفزت هذه الشوائب دعاة المسلمين ومصلحيهم على بث ثقافة التوحيد الخالص، وبيان خطورة تسرب بعض عقائد الهندوسية وغيرها من المعتقدات في ثنايا عقيدة الإسلام، ما حافظ على إسلام هندي نقي نسبيا.

خلُص البحث إلى أن أهم ما حققه فن المديح النبوي، إشاعة ثقافة التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فالمدائح النبوية تطلب منا اتباع سنته في شتى مجالات حياتنا، لأجل إسعادنا والنجاح في حياتنا، فهو الرحمة للعالمين، والشفيع للمذنبين يوم القيامة،المكرم بالمقام المحمود، والمُعطى الكوثر، والواجب الطاعة والاتّباع، الصلاة عليه واجبة وتصديق معجزاته فريضة.

لقد صار ملحّا إبراز السمات الرائعة في شخصية النبي لدفع التهم التي يحاول أعداء الإسلام إلصاقها به، فضلا عن سعي أتباع الديانات الأخرى إلى إبراز رموزها في القنوات الفضائية ووسائل الإعلام الأخرى بواسطة الأفلام الكارتونية الهندوسية والمسيحية، مثل تشوتا بهيم، وبين تين، ودورامون، ولف ايند كش، والكثير من الأفلام التي تتحدث عن شخصيات الديانات الأسطورية، وتحببها إلى قلوب وعقول الأطفال المسلمين وتمدد بفتنتهم.

وبفضل المدائح النبوية ازدادت علاقة المسلمين لا بالرسول وآله وصحبه ومَن والاهم فحسب، بل تطورت علاقاتهم بالشعائر الإسلامية الأخرى الموجودة في أرض الحجاز لكثرة ترددها في المدائح، خاصة في مكة والمدينة، الأضرحة، والمساجد، وغار حراء، والصفا والمروة، وضريح النبي، والمسجد النبوي الشريف، و لم يحتفِ المداحون برمز اسلامي حفاوتهم بقبة المسجد النبوي الخضراء.

قائمة الهوامش

1ـــــ سبحة المرجان فى آثار هندوستان / غلام علي آزاد البلكرامي/ (د.ت)،(د.م)/ ص:.30

2ـــــ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (الإعلام بمن في الهند من الأعلام)/ عبد الحي الحسني / دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ـــــ بيروت/ ط1، 1999م/ ج 2 ، ص.163

3ـــــ مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي / د. زبير أحمد الفاروقي/ دار الفاروقي ـــــ دلهي/ ط1، 1990م/ ص104.

4ـــــ المرجع نفسه/ ص:159ـــــ160.

5ـــــ المدائح النبوية في الهند/ د. محمد صدر الحسن الندوي المدني/ معهد الدراسات الاسلامية ـــــ اورنك آباد ـــــ مهاراشترا ـــــ الهند/ ط1، 2007م/ ص:212.

6ـــــ المرجع نفسه/ ص:188.

7ـــــ المرجع نفسه / ص:190.

8ـــــ مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي / د. زبير أحمد الفاروقي/ ص:99ـــــ98

9ـــــ مقال أبي الحسن على الحسني الندوي/ مجلة الرائد/ دار العلوم ندوة العلماء/ 2-8 جمادي الأول،1417ه.

10ـــــ المدائح النبوية في الهند/ د. محمد صدر الحسن الندوي/ ص: 222.

11ـــــ المرجع نفسه/ ص: 230.

12ـــــ المرجع نفسه/ ص:213.

13ـــــ المرجع نفسه/ ص: .55

14ـــــ المرجع نفسه/ ص: 156

15ـــــ المرجع نفسه/ ص:.198

16ـــــ المرجع نفسه/ ص: 185.

17ـــــ الثقافة الإسلامية في الهند / عبد الحي الحسني/ مجمع اللغة العربية ـــــ دمشق / ط2 ،1983/ ص:48.

18ـــــ الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين / الدكتور أحمد إدريس/ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية/ ط1، 1998م/ ص:225ـــ226.

19ـــــ ينظر: النبي صلى الله عليه وسلم في شعر العلامة إقبال / أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم/ مقال منشور على الموقع: http://www.wata.cc/forums/showthread.php

20ـــــ ينظر: المرجع نفسه.

21ـــــ ينظر: تقرير الدكتور محمد قطب الدين، أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، بنيو دلهي، تم نشره في مجلة "ثقافة الهند"، المجلد 64، العدد2، عام 2013م، ألقي في ندوة نظمها قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي، بمساعدة المجلس الوطني لترويج اللغة العربية، المالي، التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية، للحكومة الهندية، ودامت لمدة يومين 5-6 مارس عام 2013م.

22ـــــ نعت گوئی اور اس کے آداب، انتساب/ البروفيسور شاهين عبدالله/ لاهورـــــ باكستان/ ط1، يناير، 2009م.

23ـــــ سورة الأحزاب: 21.

24ـــــ نعت گوئی اور اس کے آداب/ البروفيسور شاهين عبدالله/ ص: 35.

25ـــــ ينظر: نعت نبوی ـ افراط و تفریط کے درمیان (المديح النبوي بين الإفراط والتفريط) / محمد إبراهيم سجاد التيمي/ مقال بالأردية تم نشره في مجلة المصباح الشهرية / الكويت / 2015/3/2م / منشور على موقع المجلة الرسمية من خلال الرابط التالي: http://www.misbahmagazine.com/archives/5163.

26ـــــ منهم الدكتور رضوان أحمد في مقاله الأردي (نعت گوئی: اردو شاعری کے زیور کانگڑی)/ تم نشره في صحيفة "دنيا" اليومية الباكستانية، منشور على موقع الصحيفة الرسمية من خلال الرابط :
http://dunya.com.pk/index.php/special-feature/2013-07-7/4954#sthash.AuisZYb7.dpuf

27ـــــ مقالات حول السيرة النبوية/ العلامة الإمام السيد أبو الحسن علي الندوي / مقال: "جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية/ أخرجه: سيد عبد الماجد الغوري/ دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع ـــــ دمشق ـــــ بيروت/ط1، 2002م/ ص248.

28ـــــ الطريق إلى المدينة ، شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم/ ترجمة: أبوالحسن علي الحسني الندوي/ دار القلم ـــــ بيروت/ ط4، 1980م/ ص112.

29ـــــ المرجع نفسه/ ص:245-246.

30ـــــ المرجع نفسه/ ص:.114

31ـــــ المرجع نفسه/ ص:115-116.

32ـــــ مقالات حول السيرة النبوية ، للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي/ "جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية/ ص: .246

33ـــــ الطريق إلى المدينة ، شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم/ ترجمة: أبوالحسن علي الحسني الندوي/ ص:117-118.

34ـــــ المرجع نفسه/ ص:.247

35ـــــ سورة المائدة ، الأية: .15

36ـــــ حديث موضوع شاع بين الناس أن عبدالرزاق الصنعاني ذكره في كتابه "المصنف" ولم يرد فيه.

37ـــــ نوع من الرقص السائد في عصر النوابين الهنود عند انحطاط الحكم المغولي في القرن الثامن عشر الميلادي.

38ـــــ ينظر: "جمالِ محسنِ انسانیت صلی اللہ علیہ وسلم نعت کے آئینے میں" (جمال نبي الرحمة في ضوء المدائح النبوية، باللغة الأردية)/ غوهر ملسياني/ منشور ألكترونيا في 4 فبراير من عام 2004م من خلال الرابط : http://lib.bazmeurdu.net/jamale-mohsine-insaniyat-gohar-milsiyani